الخدمة الاجتماعية ومشكلة الأيديولوجية

الدكتور احمد مصطفى محمد خاطر (*)

تعتبر الخدمة الاجتماعية احدى المهن الاساسية ، التى تلعب دورا ملموسا داخل نظام الرعاية الاجتماعية فى المجتمعات المعاصرة . وعلى الرغم من وجود الاطر النظرية والفلسفية التى توجه الممارسة ، الا اننا نجد انفسنا بحاجة دائما الى ان نمعن النظر فى مدى فاعلية الاداء ، وذلك فى ضوء الواقع الاجتماعى للمجتمع الذى نعيشه ، بهدف الوصول الى تحقيق الاهداف باستخدام انسب الوسائل والادوات بالنسبة للمجتمع ، وبما يتمشى والعطاء العلمى للعديد من التخصصات المتعددة التى تثرى باستمرار رؤية هذا الواقع الاجتماعى .

والدراسة التى نعرض لها يمكن أن نوجز الهدف من ورائها من حيث التعرف على مدى توفر المصداقية فى الخدمة الاجتماعية فى ضوء الواقع الاجتماعى للمجتمع العربى الخليجى المعاصر . ومن ثم نجد أن هذا الهدف يحدد بطريقة ضمنية نهج العرض ، والبناء التراكمى لتحليل العلاقات المتضافرة لمكونات نسق الممارسة فى الخدمة الاجتماعية ، حيث اللزومية لصياغة تصورية مثالية لممارسة الخدمة الاجتماعية ، ويستتبع ذلك تحليلا لعناصر ومكونات نسق الممارسة ، وبعد ذلك نتحقق من المصداقية عن طريق تدارس واقع المجتمع العربى الخليجى فى ضوء هذا البناء المثالى لنتأكد من مدى فاعلية الممارسة فى نهاية الامر .

وعلى ذلك تتحدد المحاور الثلاثة التى تدور حولها الدراسة فى الآتى :

اولا : التعريف بالخدمة الاجتماعية ، ونسق الممارسة ، واختيار أحد المتغيرات الاساسية داخل هذا النسق ، والتدليل على اعتباره قيمة محورية نحتكم اليها لتحديد الفاعلية .

ثانيا : تحليل المضمون للقيمة المحورية التى انطلقنا منها ، لاثراء الرؤية النظرية للابعاد البنائية والوظيفية لها ، وكيفية الاستدلال على وزنها النسبى فى المجتمع .

(*) استاذ مساعد بقسم الاجتماع ـ كلية الآداب ـ جامعة الملك سعود .

ثالثا : استقراء الواقع الاجتماعى المعاصر لمجتمع الخليج العربى على وجه الخصوص ، ومحاولة قياس مدى توفر فاعلية ممارسة الخدمة الاجتماعية فى هذه المجتمعات .

اولا : الخدمة الاجتماعية ونسق الممارسة :

ان التعريف بالخدمة الاجتماعية يعتبر احد الامور المحفوفة بالمخاطر ، والعديد من المحاذير ، ليس لصعوبة الامر ، او لعدم وضوح الرؤية ، ولكن الخدمة الاجتماعية بوصفها تنتمى الى مجموعة التخصصات الانسانية والاجتماعية تعانى بالتبعية من مشكلة المفاهيم بين الاستخدام العام والخاص، ومن مشكلة الاتفاق العام داخل المجتمع على بديهيات الامور ، ومحاولة تجاوزها . ولا ندرك صعوبة هذا الامر ، الا عندما نحاول ان نقف لننظر الى ما اعتبرناه فى مرحلة سابقة من الامور البديهية ، ثم حاولنا ان نتناوله بالشرح والتوضيح ، وهنا تحدث الاشكالية الاساسية للعلوم الانسانية والاجتماعية ، من حيث اننا نجد انفسنا امام ما يمكن ان تطلق عليه « السهل الممتنع » .

وتأتى الصعوبة من حيث ان التعاريف التقليدية للخدمة الاجتماعية لا تتفق والاطار السياسى والاجتماعى والايديولوجى لكثير من المجتمعات النامية ، هذا بالاضافة الى أن ممارسة الخدمة الاجتماعية تتأثر الى حد بعيد بطبيعة المجتمع الذى تمارس فيه ، وتاريخه وتراثه وخصائصه ، حيث أن الممارسة تلتزم وتهتدى بمجموعة القيم النابعة من تراث المجتمع وايديولوجيته بالاضافة الى تقاليد المهنة نفسها ، وعلى الرغم من ذلك لا نملك الا أن تكون البداية الاستعانة ببعض التعاريف الاساسية لبعض الرواد فى مجال هذا التخصص ، وفى ضوء ذلك يمكن أن نحدد الخدمة الاجتماعية على انها :

« مهنة انسانية تعمل على تهيئة اسباب التغير تحقيقا للرفاهية الاجتماعية بأسلوب منهجى يجند طاقات الافراد والجماعات والمجتمعات المحلية ، بتدعيم قدرتها وامكانياتها ، وعلاج مشاكلها على اساس من المساعدة الذاتية وفى الاطار الايديولوجى للمجتمع » (١) .

ويؤكد هذا التعريف على أن الخدمة الاجتماعية تتوفر لها الصلاحيات

---

(١) د. يونس الفاروق زكى : الخدمة الاجتماعية والتغير الاجتماعى ، عالم الكتب ١٩٧٨ ، ص ١٢٧ .

للتطبيق فى كافة المجتمعات على اختلاف ايديولوجياتها ، ولكن بالضرورة يجب أن تتم الممارسة فى ضوء ايديولوجية المجتمع ، والتى تحدد بدورها أنسب الاستراتيجيات ، وأفضل الوسائل والادوات لتحقيق الاهداف النهائية للتغير الاجتماعى فى المجتمع . كما أن تحديد المشكلات أو طبيعة الاحتياجات يتم فى ضوء الايديولوجية السائدة فى المجتمع . وعلى الرغم من أن الرعاية الاجتماعية فى المجتمع المعاصر اصبحت حقا تكفله الدولة الا أن القيم التى تحكم الاداء ، والتى تعمل الخدمة الاجتماعية فى اطارها تتأثر بالايديولوجية السائدة فى المجتمع (٢) .

وندرك من هذا التقدم أن ممارسة الخدمة الاجتماعية يجب الا تتم بمعزل عن ايديولوجية المجتمع ، ولكن الامانة العلمية تملى علينا اهمية عرض وجهة النظر الاخرى ، والتى تعبر عنها بعض الكتابات للاتجاه الراديكالى فى الخدمة الاجتماعية ، والتى تنكر على الخدمة الاجتماعية امكانية ارتكازها على ايديولوجية المجتمع بوصفها من العوامل المعوقة لاحداث التغيير الجذرى فى المجتمع ، وذلك لاعتبارات عديدة من اهمها :

- التراكم المعرفى المتدفق بمعدل كبير من السرعة لمحتوى الاطار العلمى التخصصى للخدمة الاجتماعية فى السنوات الاخيرة .

- صعوبة دراسة المحتوى الايديولوجى للمجتمعات المعاصرة والوقت والجهد الذى نحتاجه للوقوف على المحتوى ، وبذلك نخسر الوقت لحين التعرف على البعد الايديولوجى (٣) .

واذا جازلنا أن نساير أصحاب الاتجاه الراديكالى ، فاننا بذلك نكون قد قبلنا سلفا فرض الوصاية على المجتمع ، وبذلك نضرب الخدمة الاجتماعية فى الصميم من حيث الابتعاد عن القيمة المحورية التى ترتكز عليها الخدمة الاجتماعية ، الا وهى المساعدة الذاتية وحق تقرير المصير .

ولكى نحقق استراتيجية منهجية صحيحة سوف نلخصها قدمناه فى مسلمة اساسية فحواها :

---

(٢) د. حسانين ، سيد ابو بكر : طريقة الخدمة الاجتماعية فى تنظيم المجتمع ، الانجلو المصرية ١٩٧٤ ، ص ٢٨١ .

(٣) Etzioni, A., (ed.) : The Semi-Professions and their Organizations, Free Press, N.Y, 1969, p. 146,

« لا تتحقق فعالية ممارسة الخدمة الاجتماعية دون الارتباط بايديولوجية المجتمع » .

ونخرج من هذه المسلمة بفرض اساسى هو « أن ممارسة الخدمة الاجتماعية فى الدول العربية الخليجية تتمشى مع ايديولوجية هذه المجتمعات ». وبعد ذلك نحاول تحديد بعض المتغيرات التى تتفاعل من خلال هذه المسلمة الاساسية ، ونحاول تعريف بعض التساؤلات التى تظل اطار الاستمرارية فى عرض ابعاد هذه الدراسة النظرية ، وحتى لا نضل الطريق فى سبيل تحقيق الهدف من ورائها ، والرد على هذه التساؤلات يسمح لنا بتحديد بعض المفاهيم الاساسية بالاضافة الى التكامل والتساند فى بنية الدراسة حيث الاستطراد فيها والانتقال بين اجزائها يتم بشكل متصاعد الى الهدف ، وهذا التساند من الناحية البنائية ينصب فى النهاية على تاكيد وحدة التساند الوظيفية لهذه الاجزاء .

ويهمنا فى الجزء الثانى من هذه الدراسة التعرف على ما هية الايديولوجية وكيفية التعرف عليها ، مع محاولة تاصيل هذا المفهوم من خلال استقراء ادبيات العلوم الاجتماعية : وذلك لكى نمهد للاجابة على التساؤلات التالية :

- ما مدى وضوح الرؤية عن ايديولوجية المجتمع العربى الخليجى ؟
- ما هى مقومات وتاثير البعد الايديولوجى على برامج الرعاية الاجتماعية .
- ما هى الشواهد التى تؤكد على حضور أم غياب البعد الايديولوجى وخاصة فى برامج التنمية الاجتماعية ؟

ثانيا : التعريف بالايديولوجية وكيفية دراستها :

لقد نشأ مفهوم الايديولوجية ابان الثورة الفرنسية ، وذلك من منطلق الاهتمام بالحرية فى مقابل الافكار المعيارية ، كمحاولة لاحلال الاهداف المثالية محل الاهداف المادية فى مجتمع الثورة «Graham 1981» وكان أول من استخدم مفهوم الايديولوجية «Destut de Tracy 1797» عندما اكد باننا مقبلون على فرع جديد من فروع العلم يمكن أن تطلق عليه علم الافكار «Science of Ideas»

ويلى ذلك الاستخدام الفلسفى للايديولوجية فى بحثها عن الحقيقة والموضوعية العلمية ، ثم جاء « كارل ماركس Marx » ، واستخدم هذا المفهوم استخداما خاصا للتعبير عن الافكار الخادعة التى تعكس اهتمام طبقة خاصة فى المجتمع ، وذلك على الرغم من اعترافه بأن الايديولوجية تصيغ المحتوى الاجتماعى للافكار فى المجتمع ، وذلك عن طريق تحديد المشاعر السلبية او الايجابية تجاه المواقف ، أو أنها قد تؤدى فى النهاية الى الانسلاخ والانفصال عن المجتمع ، وبذلك اعتبر ماركس الايديولوجية مسئولة عن الاغتراب «Allienation» وعدم الشعور بالعقلانية والرشد فى معايير الضبط داخل المجتمع .

ان استخدام ماركس للايديولوجية يعتبر استخداما خاصا من حيث انه يرى فيها انها وسيلة او اداة الجماعات الخاصة لاضفاء الشرعية على سلوك او اتجاه معين ، وهذا ما عبر عنه « سيليجر » «Seliger 1976» عندما قال بأن الايديولوجية ما هى الا نمط من اتساق المعتقدات تخدم جماعات معينة عن طريق تبرير سلوكهم المنظم ، ولتحقيق الحماية او الهدم والبناء فى المواقف المختلفة ، وذلك من خلال المعايير الاخلاقية ، ويمكن أن نرى المثال الواضح على ذلك ايضا فى بعض النظم السياسية ، كالشيوعية والفاشية والاشتراكية ، حيث أن الايديولوجية تحقق العقلانية للمقولات والاهتمامات السياسية لهذه الاتجاهات (٤).

ويتفق ايضا مع هذا الاتجاه « كارلتون » Carlton 1977 فى تاكيده على أن الايديولوجية هى اداة للدعم ، او ميكانيزم يعمد الى اضفاء الشرعية من خلال الضبط الاجتماعى ، ويسهل اتخاذ القرارات او الاختيار بين البدائل للافراد والجماعات خلال المواقف التى تواجههم . ويكمل تحليله للوظائف الاساسية لكل من المعتقدات ، التسهيلات والمعايير الاخلاقية، وقوى الترابط وقضايا التقدم بوصفها الاطار العام لانواع الايديولوجيات ، كالايديولوجية المحافظة ، والايديولوجية الثورية ، وايديولوجية اعادة الصياغة ، والايديولوجية المصيرية ، ويركز على نوعين من الايديولوجية :

- الايديولوجيةاللاهوتية ، وهى التى تقدس ما وراء الطبيعة . وهى التى كانت سائدة فى مصر القديمة .

---

(٤) Kinloch, C., Graham : Ideology and Contemporary Sociological Theory, Prentice-Hall, Englewood Cliffo, N.J., 1981, pp. 4-8.

ـ الايديولوجية الحضارية ، وهى التى تقوم على تطور انسـانى وتتضح بشـكل كبير فى الثقافة الاثنية لدى مجتمع اليـونان القـديم .

وفى كلتا الحالتين نجد ان الايديولوجيـة نسق من الميكانيزمات التـى تخدم النظـام القائم فى ضوء اهتمامات أو مصالح الصفوة فى المجتمع (٥) .

اما استخدام الايديولوجية فى تفسير الحياة الاجتماعية ، وهو ما تأخذ به هذه الدراسـة ، فينحى بعيدا عن هذا الاستخدام الخاص بالاتجاهات السياسية ، او الميكانيزمات الخاصة بالصفوة للحفاظ على مكاسبهم ، حيث نجد انها وسيلة لتصنيف جماعات المجتمع ، والتعرف عليهم ، على اساس انها مزيج او مركب من المسلمات الاساسية ذات العلاقة بالناس ،والتى يشتركون فيها جميعا ، وهى بذلك تلعب دورا اساسيا فى تحقيق الاستقرار فى العلاقات الاجتماعية ، والتماسك فى النسيج الاجتماعى فى المجتمع ، لانها تخلـق توقعات مشتركة لدى جماعات المجتمع ، وهذا بدوره يفسر لنا بعض التعبيرات المشتركة ذات الدلالة الواحـدة لدى جماعة من الناس دون غيرهم ، بينما قد تعنى هذه التعبيرات شيئا مختلفا تماما لدى الآخرين ، وما يهمنا هنـا ليس فقط دلالة التعبير ، ولكن ما ينتـج عن ذلك من ردود افعال تكـون فى مجموعها نسق التفاعل المشترك .

وعلى ذلك نجد أن الاتجاه الذى نتبناه باعتبار أن الايديولوجيـة مجموعات من المسلمات التى توجه السلوك ، يمكن أن يجعلنا ننأى بالممارسة العلمية عن الاخذ بها ، او الاهتمـام بشأنها ـ وذلك من منطلق الهـوة العلميـة بين المسلمات والمعـرفة العلمية ، لان المعرفة تعبير دقيق عـن واقع الحيـاة . بينما المسلمات قد تكون حقيقية كما قد تكون غير ذلك ، كما أن الاستخدام المعرفى يتم بشـكل ارادى ، امـا المسلمات فانها فى كثير من الاحيان توجه سـلوكنا دون أن نشعر بدافعيتها ، بالاضـافة الى أن المعرفة تحتاج الى مزيد من الوقت للتحقق منها والاحتكام اليهـا ، اما المسلمات فانها تؤثر بطريقة سريعة وعفوية فى عملية اتخاذ القرارات ـ ولكن لكى ندلل على خطـورة المحتوى الايديولوجى للمجتمع وتأثـيره على واقع الحياة الاجتماعية بشـكل لا يمكن تجاهله ، يكفى ان نعرف مدى تأثير هذه المسلمات على مسار العـلاقات الاجتمـاعية فى المجتمع ، لاننـا عندما نحتكم الى هذه المسلمات لا نقف لنقيم ما اذا كانت هـذه الاحـكام تقوم على

---

(٥) Bershady, J., Harold : Ideology and Social Knowledge, Basil-Blackwell, Oxford, 1973.

الحقيقة أو الوهـم ، ذلك لان المسلمات التى توجه السلوك والتى قد تكون ضربا من الوهـم ، انما توجه سلوك الناس بوصفها حقائق يقتنعون بها تمامـا .

ان المسلمات التى تضمها الايديولوجية تدعم أولا سلوكا معينـا ، أو تجعلنا نهتم بموضوع دون آخر أو نتصرف بطريقة ما أمام موقف بعينه، ولذلك فان الموضوعية والحيادية كلها تعتبر أمورا نسبية فى المجتمع (٦) .

ولقد تعددت التأثيرات الايديولوجية مجالات الخدمة الاجتماعية ، حيث نجد ان لهذه الاشكالية صدى كبيرا فى مجالات وطرق البحث الاجتماعى وعلم الاجتماع أيضا ، وذلك من خلال الانتقادات الموجهة الى المسلمات الشائعة، والتى يقدمها التجريبيون ، فى نفس الوقت الذى يتحرك فريق آخـر من الاهتمام بالبيانات الكمية الى البيانات الكيفية لتفسير الظواهر الاجتماعية . ويعتنق هذا الاتجاه من يرفضون بشدة امكانية الحصول على معرفة موضوعية فى العلوم الاجتماعية ، مع ظهور الاهتمام المتوازى او المتزامن بالبناء المعرفى لعلم الاجتمـاع من خلال نمو الدراسات الاستطلاعية فى اوربا لمحتـوى المعرفة الاجتماعية . كما نجد أن من بين أصحاب الاتجاه الراديكالى فى علم الاجتماع من أمثال جولدنر وبوتومور «Gouldner & Bottomore» يفجرون مشكلة مشابهة فى علم الاجتماع الغربى ، وتتمثل هذه المشكلة فى الهوة الحالية بين الآراء الحديثة والنظريات التقليدية ، والتى تنعكس فى رفضهم للوظيفية ، وبزوغ النظـريات البديلـة كالتى تم تطويرها بمعـرفة « جوفمان ، جارفينكل وهومانز » «Goffman, Garfink, Homans» وزيادة الاهتمـام بالنظرية متوسطة المدى Middle range والبحـوث الحرة والمشـكلات النظـرية .

ثم نعود الى محور الاهتمام بالايدبولوجيـة فى ضوء كافة المعطيات السابقة من حيث أنها تمثـل المحتوى العام للدافعية ، والاطار المرجعـى للتفضيلات والاقدام او الاحجام او القبول والرفض لكافة مواقف الحيـاة ، ونؤكد فى ضوء كل ذلك اهميـة ارتباط نسق الرعاية الاجتماعية فى المجتمع بالايديولوجية . وعندما نطالب بأن تتم الممارسة فى ضوء توجهات ايديولوجية، لا نعنى بذلك التبعية ، ولكن عدم التجاهل ومحاولة تحقيق أهداف الرعاية الاجتماعية إما من خلال الدعم الايديولوجى لاهـداف الرعـاية ، او محاولة

---

(٦) Walford, George : Ideologics and Their Functions, (A study in Systematic Idiology), George Walford, 1979, pp. 14-21.

التاثير فى المحتوى الايديولوجى قبل تخطيط وتنفيذ برامج الرعاية الاجتماعية، على اعتبار اى تغييرات تستهدفها الرعاية الاجتماعية وغير متسقة مع المحتوى الايديولوجى سوف تقابل باستهجان وعدم قبول ، والخدمة الاجتماعية على سبيل المثال تملك العديد من الاستراتيجيات ونماذج الممارسة ما يجعلها تستطيع أن تتعامل مع المعوقات الايديولوجية عندما تتصادم مع اهداف التنمية الاجتماعية ، ولكن شريطة أن نكون على بينة عن كيفية ومدى هذا التعارض .

ثالثا : الواقع الاجتماعى لمجتمع الخليج العربى وفاعلية الممارسة :

نحاول أن نستدل على الواقع الاجتماعى لمجتمع الخليج العربى لكى نحتكم الى ذلك فى الاجابة على التساؤلات التى سبق عرضها فى صدر هذه الدراسة من حيث :

- ما مدى وضوح ايديولوجية المجتمع ؟
- ما مدى غياب البعد الايديولوجى فى برامج تنمية المجتمع العربى ؟

وقبل ان نحاول الاجابة على هذه التساؤلات فى ضوء الواقع الاجتماعى للمجتمع العربى الخليجى ، لابد من واقع الامانة العلمية أن نعرض ايضا وجهة النظر التى تختلف فى الاتجاه مع منطلق هذا العمل ، وتنكر اهمية البعد الايديولوجى ومحاولة التاثير عليه احيانا ، وذلك من منطلق انها تعتبر الخدمة الاجتماعية ايضا بمثابة اداة او ميكانيزم ايديولوجى تقليدى يستخدمه احيانا نظام الحكم للمساعدة على جعل شريحة كبيرة من جماعات المجتمع تتقبل وتتكيف سلبيا للحياة التى تعيشها (٧) . وبذلك فهم يرفضون المحتوى الايديولوجى برمته على اعتبار انه اطار غير مرغوب فيه، ودعمه أو تعديله لن يأتى الا بضمانات جديدة لخفض التوترات بين انساق المجتمع ، مع ضمان استمرارية الامور فى المجتمع على ما هى عليه . بل انهم يطالبون بأن تكون للخدمة الاجتماعية ايديولوجية — وهم — بذلك يبتعدون بها عن الموضوعية والعالمية التى تكسبها صفة المهنة — تطبق فى كافة المجتمعات ، كما يطالبون الممارس فى الخدمة الاجتماعية أن يلعب دورا مزدوجا فى المجتمع ، ليعيش حياته الطبيعية دون التاثر بمشكلات

---

(٧) Middle, R. & Goldberg, G. : «The International Way of Presenting Generic Social Work Concepts», Journal of Education for Social Work, Vol. 8, No. 2, Spring 1972,

الممارسة ومستويات الاداء التقليدية . وبذلك فان اصحاب هذا الاتجاه يرفضون المحتوى الايديولوجى العام للمجتمع برمته على اعتبار انه غير مرغوب فيه ، ودعمه أو التعديل فيه سوف يكون لصلحة ذوى السلطة فى المجتمع (٨) .

ان مسايرة هذا الاتجاه المعارض يحتم علينا ان نلتزم بشكل حرفى بقيم الممارسة فى مهنة الخدمة الاجتماعية ، دون ان يكون لها كل الاهتمام الذى يؤثر فى قيم المجتمع ومعاييره وتطلعات ابنائه ، وهذا بدوره سوف يفقد الخدمة الاجتماعية احد مقومات المهنة ، الا وهو الاعتراف من قبل المجتمع ، ويؤدى ذلك بدوره الى نتائج يصعب التنبؤ بآثارها (٩) . كما ان تقبل المجتمع كما هو والعمل على تحقيق اهداف التنمية دون ادنى اعتبار للتغيرات التى تطرأ على المحتوى الايديولوجى للمجتمع من شأنه ان يجعل مهنة الخدمة الاجتماعية مهنة تابعة للمجتمع تلهث باستمرار وراء كل جديد من تراكمات المعرفة النظرية دون التقيدبواقع المجتمع ، على حين ان اى مهنة يجب ان تكون لها صفة الريادة والسبق فى التخطيط للتنمية للغد انطلاقا من معطيات اليوم الذى هو امتداد لعطاء الماضى لهذا المجتمع (١٠) .

ثم ننتقل الى محاولة التعرف على ايديولوجية المجتمع الغربى ، والسبيل الامثل لذلك لا يكون الا من خلال معطيات البحوث الاجتماعية التى تتم فى هذه المجتمعات . ومن خلال المعايشة لهذه المجتمعات نجد أن هناك تحفظات كثيرة تقف أمام مجالات البحث الاجتماعى ، سواء من حيث موضوعات الدراسة ، أو نشر نتائج هذه الدراسات ، ومدى الوعى أو التعاون من المجتمع نفسه لاعطاء بيانات دقيقة يمكن الاعتماد عليها ، بحيث نجد انفسنا نواجه ندرة فى البحوث ذات العلاقة والجدوى بهذا الموضوع ، أو اننا أمام كم هائل من النتائج الخاصة بالبحوث التى قد لا نثق كثيرا فى نتائجها نظرا لتوجهات الدراسة ، أو محاولة الباحث تلافى محاذير النشر ليضمن لدراسته أن ترى النور ، أو نتيجة لعدم الوعى وتقدير اهمية الدقة فى البيانات بالنسبة لمفردات مجتمع الدراسة .

Jones, H., (ed) : Towards a New Social Work, Routledge & Kegan Paul, London, 1975, p. 69.

Haines, J. : Skills and Methods in Social Work, Constablic, London, 1975.

Henderson, P. & David, N., Thomes : Skills in Neighbourhood Work, George Allen, London, 1980, p. 148.

وقد يكون الامر اكثر سهولة من خلال تكتيك الممارسة فى الخدمة الاجتماعية ، حيث نجد ان المشاركة تعتبر احد المبادىء الاساسية فى الممارسة ، وعن طريق المشاركين يمكن لنا ان نستشف التوجهات الايديولوجية للمجتمع بصفة عامة ، او للشريحة التى يمثلها هؤلاء المشاركون (١١) . ولكن سوف نجد ان طبيعة المؤسسات الاجتماعية الموجودة فى المجتمع تستنفذ كافة طاقاتها لتنشيط العضوية بحيث لا يصبح لديها فائض من الجهد للاهتمام بمحتوى المشاركة نفسها ، او الاهتمام بدراسة السمات البنائية والوظيفية للمشاركين انفسهم ، وبذلك تأتى اهداف التنظيم غير معبرة عن واقع المجتمع وتطلعات جماعاته (١٢) ، بل ان البعض يرى أن لجوء الخدمة الاجتماعية الى التعمق فى فهم تطلعات العملاء يعتبر نوعا من العطاء الزائد ، ويكفى هؤلاء العملاء أن المجتمع يستقطع جزءا من موارده لمقابلة احتياجاتهم او لحل مشكلاتهم ، ولذلك فان النظرة الاستهلاكية الى الممارسة فى الخدمة الاجتماعية تعتبر سائدة لدى هذه المجتمعات ، بينما فى مجتمعات اخرى ينظر الى الدعم المادى للمؤسسات الاجتماعية التى تقوم على رعاية ذوى المشكلات الخاصة فى المجتمع ، على اساس انه نوع من الاستثمار الآجل ، الذى يجنى المجتمع ثماره فى وقت لاحق ، وتنعكس آثار هذه النظرة عندما نحاول أن نقترب بالدراسة من الجدوى الاقتصادية لهذه الخدمات (١٣) .

ويمكن أن نتغلب على ذلك من خلال التعرف على الملامح العامة للشخصية القويمة بالنسبة للمجتمع العربى ، والتى يمكن تقسيمها الى ما يلى :

---

(١١) فكرة المجتمع عند Spergel تقوم على اساس ان المجتمع الذى يعمل معه الاخصائى الاجتماعى هو مجتمع اصحاب المشكلة او الحاجة المشتركة ، وقد اسماه « مجتمع الحاجة او المشكلة » .

Spergel, A., Irving : Community Problem-Solving, The Delinguency Example, Chicago Press, Chicago, 1969.

(١٢)

Perlman, R., & Gurin, A. : Community Organization and Soical Planning, John Wiley & Sons, N.Y., 1972, pp, 33-39

(١٣)

Grosser, C., (ed.) : New Directions in Community Organization from Enabling to Advovacy, Prager Publishers, N.Y., 1976, p. 15

* خصائص الدوافع والنزعات التى يتصف بها أفراد المجتمع والتى تنقسم الى ما يلى :

١ ـ دوافع الانجاز ، ويقصد بها الاهمية التى يعطيها الفرد العامل لانجاز العمل واتقانه .
٢ ـ دوافع الفردية الاستقلالية وتأكيد الذات ، ويقصد بها النزعة لدى الفرد للفردية والاستقلال بذاته وتأكيدها .
٣ ـ النزعة للتجديد والمغامرة ، ويقصد بها نزعة الفرد العامل للتجديد فى عمله وفى كيان حياته واقباله على المغامرة مهما كانت خطورتها .

وفى هذا الجانب نجد معطيات الثقافة العربية تشتمل على تناقضات عدة من حيث أن ظروف هذه المجتمعات جعلتها حتى الآن لم تتخلص من خصائص البداوة التى تقوم على الغزو والعصبية والقبيلة ، وتقدير المروءة (١٤) .

وهذه السمات مجتمعة جعلت شعوب المجتمعات العربية تحتقر المهن اليدوية أو كل من يكسب رزقه بكد يمينه وعرق جبينه ، فهم ينظرون اليه بأنه يمتهن مهن الضعفاء ، وهنا يكمن التعويق بالنسبة للانجاز ، أو بالنسبة للشمولية والتوازن فى برامج التنمية . أما العصبية والقبلية فانها على الرغم من بعض ابعادها السياسية التى قد تحد من مبدأ السيادة للدولة ، الا أنها لا تعتبر من معوقات التنمية ، ويمكن أن نستشف ذلك من خلال رأى ابن خلدون ، حيث يفرق بين مصدر السلطة بين الحاكم ورئيس القبيلة فنجد أن احترام افراد القبيلة له وطاعتهم اختيارية ، أما الحاكم فهو يفرض طاعته قهرا ، وبذلك فاننا نضمن أن تفرز هذه المجتمعات قيادات طبيعية تستطيع لو منحت الفرصة أن تعبر بصدق عن احتياجات المجتمع واتجاهاته ، كما تضمن فى نفس الوقت الولاء والاستمرارية والحماس فى المشاركة . ولكن ينشأ التناقض مرة أخرى من خلال سمة تقدير المروءة ، حيث يوصف الرجل المثالى بأنه (نهاب ووهاب) أى أنه شجاع قادر على الغزو وانه ذو مروءة ، والمروءة فى نظره الكرم والشهامة ، ولذلك فهو يفضل السمعة على الادخار ، بينما نجد أن متطلبات التنمية تحقيق أقصى فائض من خلال الاوعية الادخارية وتوجيهه نحو برامج التنمية فى المجتمع.

---

(١٤) د. على الوردى : « القيم والعادات والتقاليد العربية وازمة التطور الحضارى » من اعمال ندوة (ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى) ، الكويت من ٧ ـ ١٢ ابريل ١٩٧٤ .

* الخصائص الذهنية التى تمثل نمط او طريقة نظرهم وتفكيرهم فى الاشياء والتى تنقسم الى :

١ ـ الاهتمام بالمضمون أم بالشكل ، ويقصد به مدى الاهتمام بجوهر المشكلة أم بشكلها الخارجى .

٢ ـ المرونة والتعددية الذهنية ، أم الجمود والوحدة الذهنية ، ويقصد بها مدى مقدرة وقابلية الفرد للتعامل بذهنية متفتحة ذات افكار قادرة على ايجاد البدائل اللازمة ، أم بذهنية خاملة لا تستطيع أن تحيد عما رسم لها او ما رسمته لنفسها .

٣ ـ العلم والعقلانية ، أم القدرية والخرافة ، ويقصد به السند الذى يتعامل به الفرد هل يبنى على اسس من العلم والعقلانية والرشد أم يبنى على اسس من القدرية والخرافة والاساطير (١٥)

والبعد الثانى لدراسة الشخصية القومية ، يمثل فى جوهره مشكلة او ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى ، واذا كان البعض يرى أن الوطن العربى يعانى من التخلف الفكرى نتيجة للنظر باستمرار الى الخلف ، والى الماضى وتجميد الماضى حتى يصبح الانسان اسيرا له ، الا ان حقيقة الامر غير ذلك تماما ، ويمكن أن نعبر عنها باسلوب عقلانى نسترشد فيه برأى البعض ممن يملكون الحكمة ويزنون كل لفظ ينطقون به ، حيث يمكن أن نرى فى المجتمع العربى « تمازج ثقافتين متعارضتين فى وقت واحد ، احدهما خارج النفس والاخرى مدسوسة فى حناياها لا تريم ، فترى حضارة العصر فى البيوت والشوارع والاسواق ، بينما تحس حضارة الماضى رابضة خلف الضلوع » ، ولذلك يمكن أن نصل الى حقيقة مؤداها فى النهاية عدم وضوح المعطيات الايديولوجية فى ثقافة المجتمع العربى (١٦) ، ويترتب على ذلك بالضرورة غياب البعد الايديولوجى فى ممارسة الخدمة الاجتماعية مما يفقدها مصداقيتها لظروف المجتمعات العربية المعاصرة .

هذا بالاضافة الى ظهور العديد من المعوقات للتنمية الاجتماعية من

---

(١٥) د. عاشور ، احمد صقر : الادارة العامة ـ مدخل ببئى مقارن ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٩ م .

(١٦) د. محمود ، زكى نجيب : « الحضارة وقضية التقدم والتخلف » من اعمال ندوة (ازمة التطور الحضارى فى الوطن العربى) . مرجع سابق .

خلال الخدمة الاجتماعية ، ذلك لانها تعتمد على المشاركة من قبل جماعات المجتمع وتتمثل هذه المعوقات فى :

- سلطة العائلة الممتدة والتى قد تؤدى الى أن تكون علاقة الفرد بالمجتمع علاقة جدلية تحوى التناقض فى الانتماء ، وقد تكون المحصلة النهائية تفضيل الولاء للعائلة دون المجتمع .. ولو اعتقدنا بذلك لتحددت الممارسة فى ضوء أن تغيير المجتمع لابد وان يبدأ من حيث تغيير العائلة أولا .
- الحماية الزائدة مما يولد لدى الفرد نوعا من الصراع بين الاعتماد الكلى على الآخرين او الاستقلالية ، ولذلك يصعب على الفرد فى كثير من المواقف اتخاذ قراراته بنفسه .. وهذا بدوره لابد وأن يؤثر فى ايجاد العلاقة بين الاخصائى الاجتماعى والمجتمع الذى يعمل معه .
- تدفع العائلة باستمرار الابن الى معاشرة الكبار فى سن مبكرة . فيتعلم التعامل مع الآخرين دون أن يتعلم التعامل مع الاشياء ، ويصبح الفرد غير قادر على المواجهة ، او أن يكون انسحابيا فى مواقف المواجهة المباشرة .
- أن تحديد المكانة الاجتماعية فى المجتمعات العربية تتم نتيجة للانتمائية الاسرية او القبلية ، وذلك من شانه أن يقتل فى الفرد روح الكفاح والحافز للمشاركة فى برامج التنمية .
- مكانة المراة فى المجتمع الخليجى تجعل من الصعب أن تمارس دورها للمشاركة فى تنمية المجتمع بالصورة التى هى عليه فى مجتمعات اخرى تخالف هذه المجتمعات فى القيم والمعايير والعرف العام (١٧).

واقع الخدمة الاجتماعية فى المجتمع العربى الخليجى على ضوء غياب البعد الايديولوجى للمجتمع :

لا احد ينكر أن تجربة الدول الخليجية بالنسبة للتنمية تعتبر تجربة فريدة من حيث البداية والانطلاق ، والتطلعات التى تريد هذه المجتمعات أن تحققها ، بل حققت الكثير منها فى فترة وجيزة من الزمن . لقد بدأ تدفق البترول وارتفاع الاسعار ، وحاولت هذه الدول أن تعوض ما فاتها من

---

(١٧) د. شرابى ، هشام : مقدمات لدراسة المجتمع العربى ، الدار المتحدة للنشر ، بيروت ١٩٧٥ .

سنوات عن ركب الدول المتقدمة الاخرى باقصى درجة ممكنة ، وفى اقصر وقت ممكن ، وكان كل ذلك على حساب الكيف . وهذا امر بديهى بطبيعة الحال .

واصاب ممارسة الخدمة الاجتماعية ما اصاب القطاعات الاخرى ، ولكن بصورة اكثر فداحة ، ذلك لأن نقل التكنولوجيا امر سهل ، ولكن اقتباس النماذج التنموية او اساليب العمل مع الانسان ، امر يصعب تطبيقه بل يعرض المجتمع الى العديد من السلبيات واهدار الموارد المتاحة . وكانت الممارسة اقرب الى استخدام المداخل الجديدة فى الخدمة الاجتماعية ، والتى تقوم على فلسفة مؤداها ? Without know-why . Know-How والتى يعبر عنها البعض بالعلاج قصير الامد ، او مدخل حل المشكلة ، وكلها اتجاهات وظيفية جديدة حتى الآن لم تثبت فعاليتها ، وتعتبر بمثابة الاستثناء فى الممارسة وليست القاعدة العامة (١٨) .

ورغم الجوار الجغرافى لدول الخليج العربى ، الا انها مجتمعات تشابه الى درجة كبيرة دويلات المدن اليونانية ، التى كان التقسيم الاجتماعى فيها واضح بين فئات وشرائح المجتمع ، حتى اننا نجد ـ فى بعض دول الخليج ـ المواطنين ينقسمون الى مواطنين من الدرجة الاولى ، ومواطنين من الدرجة الثانية ومواطنين بالولادة ، ومواطنين بالتجنس ، مقيمين ووافدين (١٩) . وفى ضوء كل ذلك لا نجد انفسنا امام معضلة كبيرة ـ حيث اننا لوقارنا برامج التنمية الاجتماعية من خلال مؤسسات الرعاية الاجتماعية، بما هو موجود فى الكثير من دول العالم التى تخالف كثيرا فى ظروفها واقع المجتمع العربى الخليجى ، لوجدنا انفسنا امام تشابه كامل فى البرامج والانشطة ، وهذا ان دل على شىء فانما يدل على غياب تأثير المحتوى الايديولوجى للواقع الاجتماعى العربى على ممارسة العديد من المهن التى من بينها الخدمة الاجتماعية .

وكذلك انفقت الدول العربية الكثير على برامج الرعاية الاجتماعية دون أن تضع فى اعتبارها اقتصاديات الخدمة ، او مردودها وعائدها الطبيعى ، او مدى حاجة المجتمع واولويات هذه البرامج والانشطة . وللدلالة على ذلك نجد ظهور بعض المؤسسات الاجتماعية التى قد لا تتمشى

---

(١٨) Hutten, J. : Short-term Contracts in Social Work, Routledge and Kegan Paul, London, 1977.

(١٩) د. الرميحى ، محمد غانم : معوقات التنمية الاجتماعية والاقتصادية فى مجتمعات الخليج العربى المعاصرة ، دار السياسة ، الكويت ١٩٧٧ ، ص ٣٣ ـ ٤٠ .

مع طبيعة قيم ومعايير المجتمع ، وتعانى الآن ندرة من يتردد عليها ، أو يستفيد من خدماتها ، وليس معنى ذلك أن المجتمع ليس بحاجة اليها ، ولكن كان يجب قبل تأسيسها أن تراعى احداث تعديلات جوهرية فى نسق القيم داخل المجتمع لكى يتقبل ويستفيد من خدمات هذه المؤسسات ، ومن بينها على سبيل المثال لا الحصر ، وجود مؤسسات لرعاية المسنين فى الوقت الذى مازالت فيه الاسرة الكبيرة أو الممتدة تمثل الغالبية العظمى من البناء الاسرى فى هذه المجتمعات ، وتعارض نسق القيم لما يسميه بالتخلى عن كبار السن وايداعهم المؤسسات الايوائية ، والقاعدة انه اذا توفرت الرعاية الاصلية ليس المجتمع بحاجة الى ايجاد الرعاية المؤسسية البديلة ، أو ظهور مؤسسات لشديدى الاعاقة ، على حين يوجد فى الاسرة الخليجية نظام الاستعانة بالخادمات أو « الشغالات » مما يمكن معه توفير الرعاية المنزلية وباقتصاديات بديلة « كالاعانة الاقتصادية » لرعاية هذه الفئة داخل اسرها.

وقد اتفق مع البعض الذى يرى أن ايجاد الخدمة اولا قد يعجل بقبولها فيما بعد « مثل انشاء معاهد للتمريض توطئة لاعتراف المجتمع بقيمة هذا العمل الانسانى ، ولكن الامر يختلف بالنسبة لمؤسسات الرعاية الاجتماعية، القاعدة العامة التى تحكمها هى توفر الاسباب والمناخ الاجتماعى المساند لها أولا ، ثم العمل على ايجاد هذه الرعاية ثانيا » .

الاستنتاجات

ان واقع الاستطراد فى التعرف على ملامح النسيج الاجتماعى للمجتمع العربى الخليجى ، وفى ضوء الممارسات التقليدية للخدمة الاجتماعية فى هذه المجتمعات تجعلنا نؤكد رفضروعدم صدق الفرض الاساسى الموجه لهذهالدراسة من حيث أن واقع الامر يدل بشكل عام على عدم مسايرة الممارسة للمعطيات الايديولوجية لهذه المجتمعات . وهذا يرجع الى عدة عوامل من بينها :

- التناقضات التى تحتويها ايديولوجية المجتمع العربى الخليجى .
- العقبات التى توضع امام البحوث الاجتماعية وخاصة التقويمية منها
- التركيب السكانى الفريد لهذه المجتمعات سواء من حيث ابناء المجتمع ، أو الوافدين على هذه المجتمعات .
- التشابه أو التطابق بين برامج وانشطة الرعاية الاجتماعية التى تقوم على تنفيذها مهنة الخدمة الاجتماعية ، مع العديد من المجتمعات

الاخرى التى تختلف كثيرا فى ظروفها الاجتماعية عن مجتمعات الخليج العربى .

ويمكن لنا أن نلخص الافكار التى عرضنا لها فيما سبق ، من حيث اننا قد حاولنا تقديم بعض القرائن والادلة التى تؤكد غياب المحتوى الايديولوجى للمجتمع العربى الخليجى سواء فى تحديد انماط أو مجالات الممارسة فى الخدمة الاجتماعية ، ولا ندعى بأن هذا هو حال هذه الدول فقط ، ولكن نجد انفسنا ايضا فى مصر قد خبرنا مثل هذا الموقف نتيجة للاخذ بآراء الرواد فى هذا المجال ، واعتبرنا هذه المرحلة انتقالية ، ثم جاءت مراحل اخرى متتالية اقيمت فيها العديد من المؤتمرات والندوات العلمية تحت مسميات مختلفة سواء للنظر فى مدى امكانية « توطين الخدمة الاجتماعية » أو « تحليل محتوى الممارسة فى الخدمة الاجتماعية » أو « دراسات متنوعة لفاعلية الممارسة فى العديد من مجالات الاخدمة الاجتماعية » ، وكلها مسميات تستهدف اضفاء المحتوى الايديولوجى للمجتمع المصرى على مسميات الممارسة (٢٠) .

ولكن ظروف المجتمعات الخليجية والتى ادت بها الى مثل هذا الموقف تختلف كثيرا عن ظروف المجتمع المصرى ، مع أن النتيجة قد تكون واحدة ، ولكن آن الاوان بعد أن توفرت البنية الاساسية لنسق الرعاية الاجتماعية فى المجتمع أن تبدأ هذه المجتمعات فى تحليل هذه الوحدات البنائية ، واعادة النظر فى وظائفها ومدى كفاءتها ، بالاضافة الى اعطاء الاهمية للدراسات التقويمية والجدوى الاقتصادية للعديد من مشروعات الرعاية الاجتماعية ، فى ضوء المردود ليس المادى فحسب ولكن كافة المعطيات الاجتماعية والانسانية . واذا كانت هناك صيحات تتعالى فى بعض المؤسسات العلمية للوصول الى مداخل اسلامية لنقل المعرفة النظرية وخاصة فى العلوم الاجتماعية ، فانه من الاولى والاجدى بنا ان ننادى بايجاد ممارسة تتسق والمحتوى الثقافى والايديولوجى لهذه المجتمعات بصفة عامة ، ليس على اساس انها البديل عن المداخل الاسلامية ، ولكن لاننا لو ارتبطنا بالمحتوى الايديولوجى للمجتمع ، فان هذه المداخل الاسلامية سوف تتحقق تلقائيا بالنسبة للمجتمعات التى تلعب القيم الدينية دورا رئيسيا فيها .

واخيرا فان ظهور مثل هذه المشكلات وطرحها للمناقشة بغرض الوصول الى تحقيق الاتساق فى الممارسة وحل التناقضات ، لا يقلل من

---

(٢٠) د. عويس ، سيد : الخدمة الاجتماعية ودورها القيادى فى مجتمعنا الاشتراكى ، دار المعارف ١٩٦٦ ، ص ٤٢ .

أهمية الخدمة الاجتماعية ، بل انه يمثل ظاهرة حتمية ، الا وهى شعور من ينتمى الى هذه المهنة بالمسئولية ورغبته المستمرة فى تحسين الاداء . كما ان لهذا الامر دلالة اخرى وهى ان الخدمة الاجتماعية تحاول ان تجتاز مرحلة سابقة ، وان تعبر الى مرحلة لاحقة ، من حيث عدم الاعتماد على المسلمات الاساسية التى توجه الممارسة ، والانقياد وراءها دون العمل على تنقية هذه المسلمات من بعض ما يشوبها من السلبيات .

ان علينا ان نواجه مثل هذه المشكلات بمزيد من الصراحة وسعة الصدر ، لانها تدل على تزايد التراكمات من الخبرة فى الممارسة الى درجة توفر المزيد من التوجهات التى يمكن ان تؤثر فى المحتوى العام للاطار الفلسفى او القيمى للخدمة الاجتماعية ، وانه قد آن الاوان لكى نقف ونعيد النظر فى هذه التراكمات الكمية ، ونحاول ان نتاكد من صدق مسلمات الممارسة فى ضوئها ، لكى نتخطى مرحلة الممارسة التقليدية ونصل بهذه التراكمات الكمية الى تغييرات كيفية فى الاداء .

ولذلك لا غرابة فى ان تنصب كافة الاتجاهات النقدية المعاصرة على فاعلية الخدمة الاجتماعية فى المجتمع ، باعتبار اننا قد تخطينا المشكلات التقليدية التى كانت تستهدف فى مرحلة سابقة ، مشكلات المفاهيم او العمليات والاهداف . ولكن فى نفس الوقت لا يكفى ان نثير هذه المشكلات دون ان نحاول ان نسهم — ولو بقسط متواضع — فى وضع بعض التصورات للاسهامات التى يمكن ان تقلل من تاثير مثل هذه المشكلات ، وذلك فى ضوء خبرات الممارسة او التراكم المعرفى فى الخدمة الاجتماعية او غيرها من التخصصات ذات العلاقة ، وهذا ما نسعى اليه ونامل .

معهد البحوث الدراسات العربية
INSTITUTE OF ARAB RESEARCH AND STUDIES
مكتب اتحاد الجامعات العربية